الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي و البحث العلمـي

جامعة محمد بوضياف - المسيلة
Université Mohamed Boudiaf - M'sila

جامعـــة محمد بوضيـاف

كليـة الآداب و اللغـــات

قسم اللغة والأدب العربـي

محاضرات في السيميولوجيا

إعداد الأستاذ :

د. أحمد أمين بوضياف

السنة الجامعية : 2018-2019

عن المطبوعة

إن الأنماط التي يتم بها تلقي النظرية السيميائية داخل الأوساط التعليمية في الجامعة، والتي لها كبير الأثر في عملية فهم واستيعاب الدرس السيميائي الفهم والاستيعاب الصحيح، تدخل ضمن ما يعرف بتعليمية الدرس السيميائي ضمن منظومة الدرس النقدي عموما والتي تتضمن الشروط والأسس التي يجب ان تتوافر في الدرس النقدي ليتم تلقيه بالنحو الأفضل.

وتأتي هذه المحاضرات ضمن هذا العمل العلمي المتعلق بتعليمية النقد السيميائي، من اجل ضبط المنظومة التعليمية للدرس السيميائي التي باتت ضرورة ملحة اكثر من أي وقت.

جامعة محمد بوضياف بالمسيلة
رئيس اللجنة العلمية لقسم اللغة والأدب العربي
كلية الآداب واللغات

المحاضرة الأولى : التأصيل الابستيمولوجي للسيميولوجيا

لقد بلغ المنهج السيميائي درجة من النضج جعلت منه أحد أهم المناهج النقدية المعاصرة التي وظفت لمقاربة جميع الخطابات النصية، ورصد كل الأنشطة البشرية المنطوية على معنى بالتفكيك والتركيب، والتحليل والتأويل، بغية الكشف عن آليات إنتاج هذا المعنى ، وكيفيات إفراز الدلالة.

من ثمة، فالمنهج السيميولوجي يهدف إلى استكشاف البنيات الدلالية التي تتضمنها الخطابات والأنشطة البشرية بنية ودلالة ومقصدية، والبحث عن الأنظمة التواصلية تقعيداً وتجريداً ووظيفة.

لكن قبل ذلك رافق التفكير السيميولوجي كل بحث عن المعرفة وحب للإدراك والاطلاع، بل كان وراء كل سؤال طرحه الإنسان لحظة دهشته الأولى برؤية الأشياء بمختلف مستوياتها في عالمه الخاص.

من المعروف أن السيميولوجيا هي ذلك العلم الذي يبحث في نظام العلامات وكيفية إنتاجها للمعنى، وهنا نتوقف لطرح التساؤل التالي: هل السيميولوجيا منهج أم علم؟

إن الإجابة عن هذا التساؤل تمر عبر تناول مفهوم العلم، أو بعبارة أخرى عبر الكشف عن الطبيعة الابستيمية للسيميولوجيا.

إنه بالرغم من تبشير فرديناند دي سوسير بميلاد علم سيوكل له دراسة الأنظمة التواصلية المختلفة عن اللغة: " صار بإمكاننا، بالتالي، أن نرتئي علماً يعنى بدراسة حياة العلامات داخل المجتمع، وسيشكل هذا العلم جزءا من علم النفس العام. وسندعو هذا العلم سيميولوجيا.Sémiologie وسيتحتم على هذا العلم أن يعرفنا بما تتشكل منه العلامات، وبالقوانين التي تتحكم فيها .

وبما أنه لم يوجد بعد، فيستحيل التكهن بما سيكون عليه. ولهذا العلم الحق بالوجود في إطاره المحدد له مسبقا، على أن اللسانيات ليست إلا جزءا من هذا العلم، [1].

إلا أن البعض يرى غير هذا الرأي بحسب أن السيميولوجيا لا تزال في طور التبلور – في السبعينيات– باحثة عن هوية معرفية واضحة المعالم، وانها لم تكتسب بعد أركان العلم ، حيث يرى كل من ديكرو وتودوروف "كون هذه الأخيرة تظل مجموعة من الاقتراحات أكثر منها علما أو كيانا مؤسسا تأسيسا علميا" (2)

يتساءل في هذا الصدد أحمد يوسف "هل أصبح المشروع السيميائي كيانا علميا يتمتع باستقلال مصوراته ويتفرد بنسقه النظري، ويتمتع بالقدرة على تحويل أطر شبكته المفهومية إلى أدوات إجرائية مطواعة، ويتوافر على مساحة غير ضيقة من حرية الحركة يترواح فيها بين عوالم الأنساق المحايثة وعوامل الأنساق المفتوحة؟"(3)

لابد إذن من الوقوف عند مفهوم العلم وما العناصر التي تجعل من معرفة ما عملا يتمتع بكينونة واضحة ومستقلة.

العلم كما يعرفه الباحثون هو "معرفة منبثقة من التجربة ...إن المعرفة العلمية هي معرفة دلت على ذاتها، تستخلص النظرية العلمية بشكل دقيق من وقائع قدمتها المشاهدة والتجربة، لا مكان في العلم للآراء الشخصية، والميول والتخيل، فالعلم موضوعي"(4)

عبر هذا الأساس إن السيميولوجيا ارتبطت مباشرة بفكرة المعرفة، من خلال أولى تفاعلات الإنسان مع ما يحيط به، إن فكرة التأمل كانت دوما تقود إلى تشكيل معرفة بالأشياء المحيط بنا ممارسين في ذلك تفكيرا سيميائيا" فمنذ أن أحس الإنسان انفصاله على الطبيعة وعن الكائنات الأخرى، بدأ يبلور أدوات تواصلية جديدة تتجاوز الصراخ والهرولة"(5)، وهذا يدل على بحثه في العلامات التي سيوظفها خدمة للمعاني والأفكار التي تخطر بباله، إنها أولى بوادر المعرفة البشرية.

في الصدد نفسه يقر الأستاذ فيصل الأحمر بصعوبة العثور على ملامح واضحة للسيميولوجيا كعلم يقول" إن الباحث في تاريخ السيميائيات لن يعثر على ملامح واضحة لهذا العلم، بل سيعثر على شذرات متفرقة تدل على أن الإنسان قد تأمل في العلامة منذ بدأ التأمل والتفكير فيما حوله"(6).

مرد ذلك تقاطع هذا التفكير – إن جاز لنا تسميته كذلك قبل أن يكون علما –معرفيا مع معارف مجاورة له " إن قراءة تاريخ نشأة التفكير السيميائي لهذا القرن ... يظهر بان بداية السيميائيات انطلقت من التفكير حول العلامة ومفارقتها ومتعالياتها"[7]؛ أي كل الأفكار والمعارف التي تحيل إليها العلامة أو تستخدمها.

فالسيميائيات كما يجمع الدارسون محاقلة لجملة من العلوم، كما أنها ليست نظرية جاهزة محددة من خلال مفاهيم مضبوطة وموحدة، بل على العكس من ذلك حالة وعي معرفي عرف بامتداداته في حقول معرفية متعددة.

السيميائيات في نهاية الأمر ليست سوى تساؤلات تخص الطريقة إلى ينتج بها الإنسان سلوكاته؛ أي معانيه، وهي أيضا الطريقة التي يستهلك بها هذه المعاني"[8]

يفند دانيال تشارلز الرأي القائل بان السيميولوجيا علم بقوله " إن مصطلح علم مظلل، حتى الآن لا تملك السيميائية مسلمات نظرية أو نماذج تطبيقية يقوم عليها إجماع واسع، لا تزال السيميائية نظرية إلى حد بعيد يسعى كثير من منظريها إلى تحديد مجالها ومبادئها."[9]

إن السيميولوجيا على هذا لا تزال تبحث لها عن ضبط معرفي محدد، حتى ترقى إلى مستوى العلم واضح المعالم، ولن يتسنى لها ذلك إلا من خلال بيان المنطلقات المعرفية التي تتكئ عليها السيميولوجيا والحدود التي تنتهي إليها الدراسة والبحث السيميائيين "يقضي التحليل الابستمولوجي إلى ضرورة التوقف عن اللحظات الحاسمة في تشكل العلوم والمعارف مادام العلم لا ينشأ دفعة واحدة، وإنما يمضي أشواطا في طريق تحديد موضوعه وتكوين مفاهيمه وصقلها إضافة إلى المجالات التي يقيم بينها علاقات التكامل والتفاعل" [10]

هذا المعنى يحيلنا إلى البدء في تقصي أهم المحطات الهامة والحاسمة في مسار تكون السيميولوجيا كعلم مستقل بعد أن كانت مجرد فكر يصاحب التأمل في مناحي الحياة المختلفة إلى أن وصلت نظرية مكتملة النواحي الابستمولوجية على الأقل في انتظار اثبات العكس.

1- فرديناند دي سوسير: دروس في اللسانيات العامة، تر:صالح قرمادي واخرين، الدار العربية للكتاب، تونس ،د.ط، 1990، ص16.

2 - O.DUCROT et T.TÒDOROV , Dictionnaite Encycloplédique des sciences du language, Article sémiotique, Ed. Du seuil.Paris 1972, P.P. 113-122

3 - أحمد يوسف: "السيميائيات ومرتكزاتها المعرفية" ، مجلة سيميائيات، العدد 02، خريف 2006، مختبر السيميائيات وتحليل الخطاب، جامعة وهران، الجزائر. ص 31.

4 -ألان ف شالمرز: ماهو العلم، تر: لطيفة ديب عرنوق، منشورات وزارة الثقافة، دمشق سورية، 1997، ص 11.

5 - فيصل الأحمر: معجم السيميائيات، منشورات الاختلاف، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط1، 2 لبنان، 2010، ص 21.

6 - المرجع نفسه، ص 22.

7 - أحمد يوسف: "السيميائيات ومرتكزاتها الابستيمولوجية" ، مجلة سيميائيات، جامعة وهران، العدد الثاني، خريف2006، ص37.

8 - سعيد بنكراد: السيميائيات مفاهيمها وتطبيقاتها، (مرجع سابق)، ص13

9 - دانيال تشارلز: أسس السيميائية، تر: طلال وهبة، النظمة العربية للترجمة، ط1، بيروت، 2008، ص31.

10 - حافظ اسماعيل علوي وامحمد الملاخ: قضايا ابستمولوجية في اللسانيات، الدار العربية للعلوم ناشرون ومنشورات الاختلاف، الجزائر ط1، 2009، ص29.

المحاضرة الثانية: الروافد الابستيمولوجية للسيميولوجيا

(الفكر الفلسفي)

لكل علم متكآته الابستيمولوجية يستمد منها كيانه العلمي، وإلا فإنه سيكون مشوها لا طبيعة له توضحه وتشرحه وتساعد على فهمه، ولن تحيد السيميولوجيا في سعيها للعلمية عن هذا الشرط، لذلك وجدت نفسها في إطار تأسسها تستند إلى ما توصل إليه الفكر البشري في مختلف العلوم والمعارف، ومن حيث تدري او لا تدري حضرت هذه العلوم في متكآت الدرس السيميائي ومنجزاته.

انصرف الفكر الإنساني للانشغال بماهية الوجود وفهم ظواهره وموجوداته، فتصدى الفلاسفة للبحث في حقيقة الكون بما ذلك اللغة باعتبارها اداة للتواصل " لم تغب اللغة عن أي فيلسوف لارتباطها بنظرية المعرفة لكن اختلاف الرؤى بين الفلاسفة كان الفارق بين فيلسوف وآخر...إلا أن ثمة اتفاقا بين الفلاسفة على أن اللغة هي رموز يعبر بها عن الأفكار وأنها صورة ومفهوم أو محمول وموضوع "[1]

إن الفلسفة في إطار ما ستتوصل إليه من إجابات لتأملاتها ستكون في حاجة إلى فكر سيميائي يساعدها على تقييد هذه المعارف تقييدا سيميولوجيا يسمح للإنسان بالعودة إليه أو تذكره.

ومن ثمة أقامت الفلسفة مبحثا معرفيا هاما للغة يختص بكينونتها وكيفية استعمالها وتوظيفها، فهي أداة الاتصال والحاملة للدلالة والأفكار، ومن حيث أن السيميائية ارتبطت بمفهوم العلامة الضارب بجذوره في الفكر الفلسفي فإن هذا الارتباط الوثيق بين السيميولوجيا والفلسفة بشكل عام يعد أمرا معقولا من حيث أنهما معا " تساؤلات تخص الطريقة التي ينتج بها الإنسان سلوكياته، أي معانيه وهي أيضا الطريقة التي يستهلك بها هذه المعاني"[2]

1- الفلسفة اليونانية القديمة:

وقفت الفلسفة اليونانية طويلا أمام ماهية الوجود بغية الكشف عن الحقيقة عبر نظرية المعرفة وارتباط هذه الأخيرة بالعلامة بحسبها الأداة الموصلة إليها، لذلك ظل التفكير بالعلامات وحول العلامة في آن واحد شغل بال الفلسفة منذ العصور القديمة مرورا بالعصور الوسطى والحديثة إلى أيامنا هذه " فلا يمكن دراسة ظواهر الوعي بمعزل عن العلامات من حيث أن السيميائيات تضطلع بعملية إضفاء الخصيصة البنيوية على صور المعرفة وأشكال التعبير " (3)

وسنعرض فيما سيلي غلى أهم المحطات التي وجد فيها الفكر السيميولوجي ضمن البحوث الفلسفية اليونانية عند مختلف أساتذتها ونظارها ومدارسها.

يعتبر الإغريق أول من بدأ التأمل في العلامة، وكان ذلك في بحوث **المدرسة الشكية** المعرفة باسم "Septicism" والتي تعني البحث القائم على التشكيك، ويرى الفيلسوف اينيديموس Aanesidemus رائد هذه المدرسة أن البحث عن المعرفة يتلخص في عشر صيغ مختلفة وهي جميعا مستقاة من تحليل للعلامات، ويرى ان هذه العلامات ليس دوما ظاهرة ومتجلية فلولم تكن مستترة أحيانا لأمكن للجميع أن يطلع عليها وبالتالي تصير المعرفة متاحة للكل."(4)

وانسحب على ذلك ما تناوله الطب الإغريقي مستفيدا من بحوث المدرسة الشكية، إلا أنه اختلف عنها في اعتماده التجربة مميزين في ذلك بين العلامات العامة والعلامات الخاصة في إطار ما يعرف بعلم البحث عن أعراض الامراض.(5)

فالعرض عند أبيقراط Ippocrate ليس علامة إلا في حدود الاستدلال المنطقي، اي أن العرض ينظر إليه في حدود ما تسهم فيه جملة من الشروط المحيطة به حينها يصبح وظيفة علامية يمكن تقييمها وضبطها وإلا فغنه يظل ملتبسا.(6)

أما برمنديس Parménide فقد ميز بين العلامة والكلمة التي هي الاسم، حيث ان العلامة عنده "تشير إلى دليل واضح، الى مبدأ استدلال" [7] على خلاف الكلمة او الاسم الذي يطلق اعتباطا مقيما معادلة مزيفة مع الواقع على حد تعبير ايكو.

اتفق افلاطون أرسطو في تناولهما للغة باعتبارها أداة الاتصال والحجر الأساس في نظرية المعرفة حيث عداها ذات طبيعة تداولية تتحدد من خلال وظيفتها التواصلية كما عبر عن ذلك امبرتو إيكو حين قال " إن المقابلة بين تداولية الأقوال ودلالة الوحدات السيميائية تعني تحويل الاهتمام من انظمة الدلالة إلى عمليات التواصل ولكن المنظوران يتكاملان "[8]

فقد وظف أفلاطون لفظ (sémiotique) للدلالة على فن الإقناع وهذا ما أورده في كتابه وأكد أن للأشياء جوهرا ثابتا وأن الكلمة أداة توصيل، وبذلك يكون بين الكلمة ومعناها تلاؤم طبيعي بين الدال والمدلول "[9]

بالإضافة إلى ذلك فإن نظرية المعنى لم تغب عن أفلاطون وأرسطو ولم تتجاوز النموذج المنطقي الذي يربط بين مقولات اللغة ومقولات الفكر فدراستهما للغة تتركز على إدراكها الفعلي ومدى ارتباط هذا الإدراك بالمقولات الفلسفية في إدراك ماهية الوجود.

وقد ارتبطت السيميولوجيا عند أرسطو بالمنطق باعتباره عملية تحليل الفكر وأشكاله وصوره [10]، ومن خلال ذلك يمكن تقسيم ما قام به أرسطو في مجال السيميائيات إلى قسمين كبيرين: الأول في حديثه عن الكلمة والثاني خصصه للحديث عن العبارة " فالقسم الأول من اهتماماته يخص المعرفة اللغوية وقد جاء مضطربا إذا تأرجح بين إثبات علاماتية الكلمات والأسماء أو نفيها...أما القسم الأخر من أثر أرسطو فقد خصه في حديثه عن العبارة وهو حديث أكثر وضوحا من سابقه وكان ذلك في كتابه الخطابة "[11]

والملفت للانتباه أن أرسطو كان يعي أكثر أهمية الخطابة بحسب احتوائها على عناصر العملية التواصلية النص والمؤلف والجمهور أما النص فهو مكون من العلامات ويقسمها أرسطو إلى قسمين ضرورية وغير ضرورية، أما الضرورية وهي "تلك العلامة التي ترد إلى سياق منطقي غير قابل للتفنيد لتعارضه مع المنطق العقلي "[12]

اما العلامات غير الضرورية ففي نظر أرسطو هي تلك العلامات المصاحبة للعملية التواصلية والتي لا تخضع للقياس المنطقي وتحتمل التكذيب.

ويتضح من خلال ما سبق أن ارسطو كان أول من ألمح إلى فكرة التأويل التي قال بها امبرتو ايكو محاولا أن يمنح المتلقي حرية التأويل وهذا من صميم الدرس السيميائي بوصفه منهجا نقديا.

2- الرواقيون

هذه المدرسة الفلسفية المتشكلة بعد انفتاح الفلسفة اليونانية على حضارات أخرى خصوصا البحر المتوسط حيث جمعت هذه الفلسفة بين المنطق والاخلاق والعلم الطبيعي وكان لها إسهام واسع في مجال التفكير السيميائي، حيث استفادوا من كل ما قدمه أرسطو وأفلاطون فيما يتعلق بالعلامة .

يدخل الرواقيون المنطق ضمن أبحاثهم السيميائية " وبحسب مذهبهم يجب على المنطق أن يدرس في الوقت نفسه الأمارات الشفوية والمفاهيم المدلولة بها"[13]، حيث أن الأمارات هي الكلمات والجمل التي هي تلك الكلمة المنطوقة واطلقوا عليها كلمة "**قولا**" وهي حسبهم ليست فحسب إصدار صوت بل بالإمكان إدراك معناها والتعرف عليها لأنها مرتبطة بكلمة العقل أو القلب".[14]

هذا يعني ان العلامة عند الرواقيين هي صوت مادي يتم التعرف عليه وفق قاعدة تعالقية تربط بين ثلاثة عناصر: العبارة والمضمون والمرجع، حيث لا يتسنى لغير المدرك والمطلع على هذه القاعدة فهم العلامة وإدراكها، والذين يسميهم الرواقيون بالهمجيين.

وقد كان الرواقيون أول من ميز بين الدال والمدلول والشيء، وإن كانوا يطلقون على الأول قولا والثاني مضمونا "فالعلامة عندهم الأقوال وليس الأحداث المادية فتختص بإمكانية وجود علاقة بين حدثين متعاقبين وبذلك يكونون قد وضعوا نظرية شاملة إذ ميزوا بين الدال والمدلول والشيء"[15]

الملاحظ على تعامل فلسفة الرواقيين مع العلامة انها تجمع بين نظرية اللغة ونظرية العلامات بحيث أنه " لكي توجد علامات يجب ان توجد قضايا والقضايا يجب أن تنتظم داخل تركيب منطقي يعكسه التركيب اللغوي ويجعله ممكنا، فالعلامات تبرز فقط عندما يمكن التعبير عنها بصفة عقلية من خلال عناصر اللغة، واللغة تتركب لأنها تعبر عن أحداث محملة بمعنى"(16)

معنى ذلك أن الرواقيون يؤكدون على أمرين اثنين: الأول هو الطبيعة اللغوية للعلامة بل ويجعلونها ذات وظيفة إبلاغيه عن معنى معين ويعبرون عنها بلفظة القضية، مستفيدين من المنطق الأرسطي في هذا التصور" فإن طبيعتها الاجتماعية فرضت على الفلسفة الرواقية أن تدمجها في القضايا المنطقية"(17)

الأمر الثاني هو تنوع العلامة من خلال تنوع التركيب اللغوي الذي يمنحها تلوينات مختلفة وهو ما تمكن الرواقيون من الوقوف عليه باعتبار أصولهم غير اليونانية.

واستنتاجا مما سبق فقد قدمت الفلسفة الرواقية الإضافة الهامة في ما يتعلق بالتفكير السيميائي، حتى وإن كان ذلك في إطار البحث في فلسفة المعرفة والإدراك.

3- القديس سانت أوغسطن:

يعد هذا المفكر رجل الدين المسيحي محطة هامة من محطات تبلور الفكر السيميولوجي، حيث أحدثت أعماله الخاصة في تفسير النصوص الدينية نقلة نوعية في مجال التعامل مع العلامة، حيث قدم البعد الثلاثي للعلامة، مدخلا فكرة التأويل، فهو "اول من طرح السؤال: ماذا يعني أن نفسر أو نؤول؟؟(18)

إن ذلك بدا جليا من خلال إسهامه في بلوة نظرية سيميائية تعتمد الخطاب الديني منطلقا لها حيث تقوم العلامة عنده على علاقة علامة/مفهوم ولكي تكتمل لابد من أن يكون تأويل خاص بهذه العلامة، " ويتجلى مذهب أوغسطين في الكلمة على ثلاث مستويات: الاول بوصفها صوتا منطوقا والثاني بوصفها رمزا يدل على كيان آخر، والثالث في أن الكلمة

تجسيد لعلاقة وجدانية عامة تتأسس على الارتباط المقدس"[19] فثمة دال وصوت إدراك ذهني لمجموع الدال والصوت.

كما يؤكد معظم الباحثين أن أوغسطين كان من أوائل من ركزوا على إطار الاتصال والتواصل والتوصيل من خلال تمييزه بين نوعين من العلامات الطبيعية والعلامات التواضعية وبين وظيفة العلامات عند الحيوان ووظيفتها عن البشر، وبالتالي فإن وظيفية العلامة هي التي تحددها.

إن مساهمة أوغسطين تكمن بشكل مخصوص في ما يتعلق بالسيميائيات مقدما مفاهيم سيميائية "ترتكز على ثنائية (الطبيعة/الثقافة) أحدثت حضورا في السيميائيات التواصل والدلالة على حد سواء.[20]

4- فلسفة القرون الوسطى:

- **منطق بور رويال:** قدمت هذه المدرسة التي تأسست في فترة تاريخية بدأت تعرف نهظة فكرية وثقافية واسعة في حين كان العصر الوسيط يجهل اللغة اليونانية ومن ثم لم يكن متاحا فهم الإرث الفلسفي اليوناني.

هذه المدرسة أسست لمنطق جديد غير المنطق الأرسطو وعدته فنا من الفنون، وقد قدمت هذه المدرسة كما هائلا من المفاهيم التي أسست قواعد بالمعنى العلمي للتفكير حول العلامة "وبناء على نزعتهم الداعية إلى تأسيس قواعد عامة فقد قسمو الكلمة الكلاسيكية إلى تسعة أقسام:(الاسم والأداة والضمير والبرتسيل وحرف الجر والظرف والفعل والرابطة والتعجب، ولكنهم أعادوا تقسيمها على أساس دلالي، فالأقسام الستة الأولى ترتبط بمقاصد تفكيرنا، وترتبط الثلاثة الأخيرة بشكل أو طريقة هذا التفكير"[21]

وما يعنينا من هذه المدرسة في شأن تصوراتها السيميائية هي أنها اهتمت بالتعريف مميزة بينه وبين الكلمة، حيث ان للكلمة تعريفان الأول اسمي والآخر واقعي بحيث يكون الأول اعتباطي في حين أن الثاني يمكنه من خلال طبيعته حمل كل أنواع الأفكار عنه فهو يكون واضحا في ذاته كمسلمة.[22]

وخلاصة ما قدمته هذه المدرسة المنطقية أساسا قد قدمت مفاهيما اتكأت عليها السيميائيات الحديثة خصوصا فيما تعلق بمفهوم المحايثة وكذا مفهوم القصدية الذي سيوجد في سيميولوجيا التواصل ومفاده عندهم أن كل فعل عقلي ضروري لبناء ملفوظ يجتهد من أجل بناء تمثل للتفكير الإنساني الذي يرتكز ارتكازا كليا على مضامين الوعي التي هي الأفكار "[23]

وفهم ذلك ان الأفكار تحتاج دوما لفعل عقلي يخصص لإنجاز علامة تتمثل تلك الأفكار قصد إيصالها وليس لمجرد تمثلها فحسب.

جهود جون لوك:

كان لهذا الفيلسوف بحوثه المتعلقة بالنظرية التجريبية المادية كطريق للمعرفة بدل التفكير المثالي، معلنا على أن التجربة مصدر كل الأفكار وإن هذه الأخيرة ما هي في الحقيقة إلا نتاج إما لعوامل خارجية بواسطة الحواس أو بواسطة التأمل والانتباه.

وما يعنينا في هذا أن لوك هو أنه قدم تصورا جديدا لفلسفة المعرفة حيث حصرها في ثلاث علوم: الفيزياء والأخلاق والسيميائية[24] ليكون أول من أشار لتسمية السيميولوجيا أاو السيميائيات بوصفها فرعا من فروع الفلسفة وإن كانت نظرته لم تتجاوز النظرية العامة للغة فهو يقول عنها " إنه العلم الذي يهتم بدراسة الطرق والوسائط التي يحصل من خلالها على معرفة نظام الفلسفة والأخلاق وتوصيل معرفتهما ويكمن هدف هذا العلم في الاهتمام بطبيعة الدلائل التي يستعملها العقل بغية فهم الأشياء أو نقل معرفته إلى الآخرين."[25] فالسيميولوجيا عند لوك هي أداة معرفية توصل إلى الفهم عبر علامات تعتمدها اللغة ويستوعبها الفكر.

فلسفة هويز:

ترتبط فلسفة هذا الأخير بالإسمية فقد كان **هويز** يولي الأسماء اهتماما كبيرا بل ويعتبرها كنه العملية التدليلية وبالتالي فهي كلية تتمتع بقدر كاف من المرونة لتتسع أو تضيق، فالعلامات عنده اسمية يسند إليها حمل كل ما تتصوره الأذهان حيث قسمها إلى نوعين:" علامات طبيعية معطاة يستطيع العقل أن يهتدي إليها عن طريق الأقيسة والاستدلالات وعلامات

وضعية من إبداعات البشر الذين يبتكرون ألسنتهم للإبانة عن مكنوناتهم وكل ما تتصوره الأذهان هو أسماء" (26)

ويعتبر هوبز أن الأسماء- والتي يعني بها العلامات- إذا كانت غير ثابتة فهي تؤدي إلى السيميوزيس ومعنى ذلك أنها مرشحة لحمل العديد من المعاني وهو ما يمنعها من حمل العلم على حسب فكر هوبز لأنها تتباين من فرد إلى فرد ومن حقبة إلى حقبة أخرى مثلما هو الحال بالنسبة إلى بعض المفاهيم السياسية والقانونية التي تكون مدلولاتها في الغالب تتسم بالالتباس والغموض" (27)

والعكس صحيح في حال ما كانت الأسماء محددة فهي على ذلك خادمة للعلم وصالحة لحمل مفاهيمه بدقة، وهو ما دفع به إلى وضع ما يسمى نظرية المقولات منتزعا من الاسم أو العلامة اربعة أصناف : الأجسام، الأعراض، الظواهر، الأسماء ذاتها، ويستبدل هوبز المعاني الكلية بالأسماء ومن هذه الأسماء ما هو مركب وما هو بسيط وكلما أضفنا إلى الاسم البسيط اسما او اسمين حصلنا على اسم أو أكثر تركيبا(28)

فلسفة دافيد هيوم:

تبرز أهمية هذه الفلسفة بصفة أساسية في اعتماد هيوم على فكرة العلة والمعلول والتي يرجعها إلى العادة التي تأتي من تكرار التجربة فهو في هذا الصدد يعتقد أن " الناس قد اعتادوا أن يستمدوا من أداء شيء معطى في الماضي أداء مشابها للشيء في المستقبل وهم لا يقومون بهذا الاستدلال إلا بقوة العادة" (29)

وهو بهذا الزعم يحاول إسقاط الأداء اللغوي على هذا المبدأ، حيث يعتبر أن لا علاقة اعتباطية أو أولية أو برهانية بين الدال والمدلول وإنما هي علاقة ناجمة من اعتياد جمع من الناس لفترة طويلة يجمع بينهم إيمان عام جماعي بسلامة هذه العلاقة " فإيمان الأشخاص بسلامة العلاقة بين الدوال والمدلولات هو الذي يمنحها الشرعية التداولية داخل المحيط الاجتماعي."(30)

لايبنتز:

إن هذه الفلسفة قائمة على أساس أن حقيقة الأفكار وصدقها متضمن داخل العقل نفسه ولا تناقض فيها، أي أنه على خلاف مفهوم الحقيقة عند أرسطو مطابقة الفكر للواقع الخارجي.

من ثمة فإن لايبنتز ينظر إلى العلامة على مقاس منطقي مبني على مبدأ التناقض الذي مفاده "أن كل قضية صادقة إذا تم صوغها صوغا دقيقا وسليما فإنها تحتوي على موضوع لها، وعليه فإن العلامة هي بمثابة الشيء الذي يعبر عن شيء آخر ولكن على شرط أن تكون هناك علاقة نسقية ثابتة بين العلامة وما يمكن أن يقال عن الشيء الآخر"[31]

وانطلاقا من ذلك فإن سيميائية لايبنتز من هذا المنطلق قائمة على الدلالة والتواصل وقد اعترفت للحروف بالسمات المرئية التي تمثل الأفكار وبالاعتباطية ومنح العلامات وظيفة معرفية على نحو غير مسبوق في تاريخ المعرفة الإنسانية.[32]

كما أن مساهمة لاينتز نلفيها في تصوره القاضي بأن لكل العلوم أصولا جوهرية مشتركة، وعندما بتمكن الإنسان من تشكيل علامات تدل على هذه الأصول يكون بذلك قد أتم موسوعة العلوم" [33] والقصد من ذلك أن الأفكار في النهاية يمكن التعبير عنها بواسطة علامات تقوم باختزالها ومن ثم التحكم فيها.

---

1 – محمد فليح الجبوري: الاتجاه السيميائي في نقد السرد العربي، منشورات الاختلاف ومنشورات الضفاف، الرباط، ط1، 2013م، ص22.

2 – سعيد بنكراد: السيميائية مفاهيمها وتطبيقاتها، ص 07.

3 – أحمد يوسف: الدلالات المفتوحة: مقاربة سيميائية في فلسفة العلامة، منشورات الاختلاف، الجزائر،ط1، 2005، ص 09.

4 – فيصل الأحمر: معجم السيميائيات، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2010، ص22.

5 – المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

6 – امبرتو ابكو: السيميائية وفلسفة اللغة، تر: أحمد الأصمعي، المنظمة العربية، بيروت، ط1، 2005، ص70.

7 – المرجع نفسه، ص 71

8 – المرجع نفسه، ص62

9 – عبيدة صيطي ونجيب بخوش: مدخل إلى السيميولوجيا، دار الخلدونية، الجزائر، ط1، 2009م، ص09.

10 – أحمد يوسف: الدلالات المفتوحة، (مرجع سابق)، ص 17.

11 – محمد فليح الجبوري: الاتجاه السيميائي في نقد السرد العربي، (مرجع سابق)، ص 25.

12 – المرجع نفسه، ص 26.

13 – أحمد يوسف: الدلالات المفتوحة، (مرجع سابق)، ص28.

14 – امبرتو ايكو : السيميائية وفلسفة اللغة، (مرجع سابق)، ص77.

15 – محمد فليح الجبوري: الاتجاه السيميائي في نقد السرد العربي، (مرجع سابق)، ص29.

16 – امبرتو ايكو : السيميائية وفلسفة اللغة، (مرجع سابق)، ص81.

17 – أحمد يوسف: الدلالات المفتوحة، (مرجع سابق)، ص29.

18 – ميشال أريفيه وآخرون: السيميائية أصولها وقواعدها، تر: رشيد بن مالك، منشورات الاختلاف، الجزائر، دط، 2002.

19 – محمد فليح الجبوري، الاتجاه السيميائي في نقد السرد العربي، (مرجع سابق)، ص 31.

20 – أحمد يوسف: السيميائيات الواصفة، الدار العربة للعلوم ومنشورات الاختلاف، ط1، 2005، الجزائر، ص 32.

21 – أحمد يوسف: الدلالات المفتوحة، (مرجع سابق)، ص 48.

22 – ينظر: المرجع نفسه، ص 49.

23 – المرجع نفسه، ص 51.

24 – امبرتو ايكو: السيميائية وفلسفة اللغة، (مرجع سابق)، ص33.

25 – مارسيلو داسكال: الاتجاهات السيميولوجية المعاصرة، تر: حميد لحميداني وآخرون، افريقيا الشرق، الدار البيضاء المغرب، دط، ص03.

26 – احمد يوسف: الدلالات المفتوحة، (مرجع سابق)، ص57.

27 – المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

28 – ينظر : المرجع السابق، ص 61.

29 – محمد فليح الجبوري: الاتجاه السيميائي في نقد السرد العربي، (مرجع سابق)، ص35.

30 – المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

31 – أحمد يوسف : الدلالات المفتوحة، (مرجع سابق)، ص ص 65-66

32 – المرجع نفسه، ص63.

33 – فيصل الأحمر: معجم السيميائيات، (مرجع سابق)، ص 25.

المحاضرة الثالثة: الروافد الابستيمولوجية للسيميولوجيا

(التراث العربي الاسلامي)

باعتبار التفكير السيميولوجي-كما سبقت الإشارة- نشاط مرتبط بالفكر البشري، فإن الاهتمام به ولنقل ممارسته في التراث العربي القديم لن يشذ عن القاعدة، فقد عني البحاثة العرب بموضوع السيمياء وأفردوا له بحوثا بل أحيانا كتبا، وإن كان المفهوم لديهم يرتبط في مرات عديدة بعلوم أخرى غير تلك المشتغلة على المعنى والدلالة، حتى أن بعضها ربطه بالسحر والشعوذة والطلاسم.[1]

لذلك فإننا في هذا الصدد لن نتوقف طويلا عند تتبع مسار التفكير السيميولوجي لدى العرب، إلا بالقدر الذي يتيح لنا التعرف على بعض من متكآت السيميولوجيا المعرفية المعترف بها على الأقل في أصول العلم الحديث.

إسهامات الجاحظ:

يعد الجهد الموسوعي للجاحظ في شتى صنوف المعرفة جهدا يشهد له العديد من الباحثين، فقد اشتهر بآرائه المختلفة في مجال البلاغة والنقد والتي يدخل ضمنها بعض الأقوال التي ترتبط بالفكر السيميولوجي.

يبلور الجاحظ في إسهاماته بوادر نظرية سيميائية بشكل بسيط حيث يقدم رأيا هاما في هذا الصدد حين يقول: "المعاني القائمة في صدور العباد، المتصورة في أذهانهم، المتخلجة في نفوسهم، والمتصلة بخواطرهم، والحادثة عن فكرهم، مستورة خفية وبعيدة وحشية ...وإنما تحيا تلك المعاني بذكرهم لها، وإخبارهم عنها، واستعمالهم إياها، وهذه الخصال هي التي تقربها من الفهم، وتجليها للعقل" [2]

إن الجاحظ بهذا المعنى لا يختلف عما ذهب إليها كبار الفلاسفة اليونان، وغيرهم من الفلاسفة مخبرا بأن العلامة أداة الإنسان في التعبير عن فكره وخوالج نفسه، بل ونستشف

أكثر من ذلك في تحديده لأنواع من العلامات فهناك ما يذكر، وهناك ما يخبر عنه، وهناك ما يستعمل في إشارة غلى تقسيم معين للعلامة اللغوية والعلامة غير اللغوية.

يقدم الجاحظ مقاربة دلالية اهتم فيها بالعلامات اللغوية وحتى غير اللغوية، فقد توصل إلى أن اللغة – باعتبارها علامة لسانية وأداة بيان – ليست الوحيدة وإنما توجد من الأدوات التي ميز الله بها الإنسان ليعبر عن مراده "جعل آلة البيان التي بها يتعارفون معانيهم، والترجمان الذي إليه يرجعون عند اختلافهم؛ في أربعة أشياء هي: اللفظ، والخط، والإشارة، والعقد"[3]

غير أن الجاحظ يورد تصنيفا للدلالات غير هذا في كتابه البيان والتبيين على خلاف ما ورد في كتاب الحيوان، حدده في خمسة أشياء، حيث يقول: "جميع أصناف الدلالات على المعاني من لفظ وغير لفظ، خمسة أشياء لا تنقص ولا تزيد: أولها اللفظ، ثم الإشارة، ثم العقد، ثم الخط، ثم الحال التي تسمى نصبة"[4] وفي ذلك فصل واضح بين العلامات اللغوية وغيرها من العلامات في المفهوم الحديث.

كما أن الجاحظ يعتبر البيان هو الإفهام والإبلاغ إذ يقول في مستهل حديثه عن البيان "والبيان اسم جامع لكل شيء كشف لك القناع وهتك الحجب دون الضمير، حتى يفضي السامع إلى حقيقته، ويهجم على محصوله، كائنا ما كان ذلك البيان، ومن أي جنس كان ذلك الدليل، لأن مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسامع إنما هو الفهم والإفهام، فبأي شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى فذلك هو البيان في ذلك الموضع" [5]

في الفكر البلاغي (عبد القاهر الجرجاني):

يتصور الجرجاني –من خلال أبحاثه القيمة في ما يعرف بنظرية النظم– العلامة على أنه لا يمكن فهمها إلا من خلال السياق أو التركيب الذي ترد فيه، ومن ثمة فهي ذات وظيفة تبليغية فهو يقول في هذا الصدد أن العلامات "تجري مجرى العلامات والسمات، ولا معنى للعلامة والسمة حتى يحتمل الشيء ما جعلت العلامة دليلاً عليه"[6]

كما تتضح أيضا بوادر التفكير السيميائي أيضا من خلال رأيه بخصوص ما يعرف حديثا باعتباطية العلامة حيث يرى أن العلامة يمكن استبدالها بعلامة أخرى للدلالة على نفس المعنى، وبالتالي فإن الاعتباطية مفهوم متجاوز لديه يقول نصر حامد أبو زيد في ذكر ذلك " فألفاظ اللغة عنده ليست إلا مجرد علامات وسمات دالة على المعاني ... فيمكننا أن نستبدلها للدلالة على نفس المعنى."[7]

يتحدث الجرجاني كذلك عن فكرة اخرى تدخل ضمن نطاق التفكير السيميائي وهي مفهوم التحول الدلالي والذي لم يشر إليه كما هو إلا أنه أورده من خلال حديثه عن ضرب من العلامات " بحيث تتحول العلامة في سياق معين إلى علامة ذات دلالة مركبة يتحول مدلولها إلى دال باحثا عن مدلول آخر "[8]

إن هذا المفهوم ينسجم مع مقولات بيرس الأولانية والثانية والثالثانية والتي يمنح من خلالها بيرس سلطة ثلاثية الأبعاد للعلامة الواحدة من خلال علاقة الدال بالمدلول،

هذا بالإضافة إلى نظرية المعنى ومعنى المعنى، التي وردت عند الجرجاني عند ما ميز بين مستويين من الكلام، يتمثل الأول في المعنى السطحي أو المعجمي والثاني في المعنى العميق المجازي أو الإيحائي، ويعد المستوى الثاني (معنى المعنى) احد أهم المفاهيم التي انبنت عليه النظريات السيميائية المعاصرة تأسيسا وإجراء.

في الفكر الصوفي (ابن عربي)

يعتبر التصوف أحد المجالات الفكرية التي وجدت بها شذرات من التفكير السيميائي خصوصا ما تعلق بالموجودات وترتيبها في هذا الكون، وفي محاولة تصنيفية لما هو كائن نجد المتصوفة يحاولون تحديد دلالة الكلمات من خلال بعدين اثنين الالهي القديم والبشري الحديث، "دلالة الكلمات لها جانبان: دلالتها الإلهية القديمة وجانب دلالتها البشرية الحادثة الدلالة الأولى في الحالة الأولى من حيث الباطن ذاتية، بمعنى أن الدال هو المدلول، أم الدلالة في الحالة الثانية فهي دلالة عرفية وضعية اعتباطية"[9]

إلى أكثر من ذلك يذهب ابن العربي مذهبا يكاد من خلاله أن يتساقط معرفيا مع شارل سندرس بيرس في مقولاته المعروفة، حيث يقسم ابن عربي مراتب الوجود إلى ثلاث مراتب:

وجود لا بشرط شيء: وهو عالم المطلق الذي لا يصح اشراطه الله سبحانه.

وجود بشرط شيء: عالم الكائنات والأشياء المقيدة بزمان ومكان.

وجود بشرط لا شيء: عالم كلي مطلق لا تحده حدود لكنه يبقى مشروطا.

ويعقد حميد الحميداني مقارنة بسيطة بين هذه المفاهيم وتلك التي جاء بها أفلاطون وكذا بيرس من خلال الجدول الآتي[10]:

أفلاطون	(الوجود الطبيعي) المثال	عمل الصانع	عمل الصور
ابن عربي	وجود لا بشرط شيء	وجود بشرط شيء	وجود بشرط لا شيء
بيرس	الأولانية	الثانيانية	الثالثانية

في الفكر الفلسفي العربي القديم (الغزالي وابن سينا)

المتصفح للمدونة الفلسفية العربية يجد العديد من بوادر التفكير السيميائي لدى الفلاسفة القدماء الفارابي، وابن سينا، والغزالي والرازي، ويعد هذا الأخير ذا راي بالغ الأهمية في مجال الدلالة والألفاظ حيث يقول في هذا السياق "الألفاظ أسهل الأنساق السيميائية وأحسنها لأنها لا تتطلب جهدا وعناء من حيث الانتاج الأصوات وإصدراها"[11]

وهو ما أكد عليه دي سوسير في تأكيده على أن اللغة هي أفضل الأنظمة السيميولوجية لسهولة التحكم فيها، وتبعه في ذلك رولان بارت الذي يرى بان اللغة هي النظام الأصلح لدراسة السيميولوجيا.

ولأبي حامد الغزالي كلمة بليغة تلخص رؤيته الفكرية في مجال العلامات فهو يقول " إن للأشياء وجودا في الأعيان ووجودا في اللسان ووجودا في الأذهان، أما الوجود في الأعيان فهو الوجود الأصلي الحقيقي والوجود في الأذهان هو الوجود العلمي الصوري والوجود في اللسان هو الوجود اللفظي الدليلي"[12]

وفي هذا الجدول تفصيل لما أورده أبو حامد الغزالي وما جاء عند دي سوسير وبيرس

الغزالي	بيرس	دي سوسير
وجود في الأعيان	الموضوع	المرجع
وجود في الأذهان	المؤول	المدلول
وجود في اللسان	الممثل	دال

يبرز هذا الجدول أن الغزالي هي نفسها المفاهيم التي جاءت بها مدارس السيميولوجيا الحديثة.

كما يبرز عند الغزالي مصطلح الإشارة على ثلاث محاور:

الوجود العيني – الوجود الذهني – الوجود اللفظي – الوجود الكتابي

وقد أورد عبد الله الغذامي تفصيلا وافيا لهذه المحاور، مؤكدا من خلال ذلك السبق المعرفي حيث يقول " فالشيء له وجوده العيني كالشجرة نابتة في الأرض ثم يكون لها وجود ذهني ، وهو أن ينشا لها في ذهن الإنسان صورة تقوم في الذاكرة، ويأتي الوجود اللفظي وهو كلمة (ش.ج.ر.ة)، وهذه لا تشير إلى الوجود العيني وإنما تشير إلى الوجود الذهني، لأن نطقنا بهذه الكلمة لا يحضر الشجرة التي على الأرض وإنما يثير صورتها في الذهن. فالدال هنا يثير دالا آخر واللفظ يجلب صورة، ثم يتحول الوجود اللفظي إلى كتابة، والكتابة تثير فينا اللفظ لأن أول ما نفعل إذا صادفنا المكتوب هو أن نقوم بنطقه وهذا النطق يجلب في الذهن صورة ذلك المنطوق وهذه هي حركة الإشارة شرحها الغزالي دون أن يسميها (إشارة) ولكن شرحه لها سبق عصر علم السيميولوجيا بقرون ولم يأت هذا العلم بشرح اكثر من هذا الذي جاء به أبو حامد.[13]

ولم يحد ابن سينا عما جاء به الغزالي في مجال التفكير السيميائي حيث أنه لم يهمل مفهوم المرجع في العلامة اللفظية، إذ أنه "اذا ارتسم في الخيال مسموع اسم، ارتسم في النفس معنى، فتعرف النفس أن هذا المسموع لهذا المفهوم ، فكلما أورده الحس على النفس التفتت إلى معناه" [14]

فالنفس حسبه تكون المرجع الذي تستند عليه للتعرف على الدال ومعناه في كل مرة يرد فيه هذا الدال عليها، بل و يذهب ابن سينا إلى أكثر من ذلك حين ينفي الدلالة عن اللفظ في ذاته دون تدخل من اللافظ حين يقول " اللفظ لا يدل البتة، ولولا ذلك لكان لكل لفظ حق من المعنى لا يجاوزه، بل إنما يدل بإرادة اللافظ، فكما ان اللافظ يطلقه دالا على معنى كالعين على الدينار فيكون ذلك دلالته كذلك إذا أخلاه في إطلاقه عن الدلالة بقي غير دال" (15)

في فكر الأصوليين :

أما الدلالة عند علماء الأصول فهي ثلاثة أنواع: دلالة مطابقة، ودلالة تضمن، ودلالة التزام. هذا بالإضافة إلى البحوث الدلالية والدراسات اللغوية التي قدمها كل من الجاحظ، وابن جني، والجرجاني، وأبي هلال العسكري... وغيرهم.

---

1 – أنظر: ميشال أريفيه: السيميائية أصولها وقواعدها، تر: رشيد بن مالك، منشورات الاختلاف، (مرجع سابق)، ص24-25

2 – الجاحظ ابو عثمان بن عمرو: البيان والتبيين، ج1، تحقيق: حسن السندوبي، المطبعة التجارية الكبرى، مصر، ط1، 1926 ، ص 68.

3 – الجاحظ ابو عثمان بن عمرو: الحيوان، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1388هـ-1969م، ط3. ص33-34

4 – الجاحظ أبو عثمان بن عمرو: البيان والتبيين، ج1، (مصدر سابق)، ص 69.

5 – المصدر نفسه، ص 68

6– الجرجاني(عبد القاهر)، أسرار البلاغة، قرأه وعلق عليه أبو فهد محمود محمد شاكر، دار المدني، القاهرة، دار المدني، جدة، ط1 ،1991، ص: 376

7 – نصر حامد أبو زيد: اشكالية القراءة وآليات التاويل، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب، ط7، 2005، ص 73.

8 – فيصل الأحمر: معجم السيميائيات، (مرجع سابق)، ص 34.

9 – سيزا قاسم: مدخل إلى السيميوطيقا حول بعض المفاهيم، ج1، ط2، دت، منشورات عيون المقالات، الدار البيضاء، المغرب. ص84.

10 – فيصل الأحمر : معجم السيميائيات، (مرجع سابق)، ص 35.

11 – مبارك حنون: السيمياء عند العرب، من مجلة دراسات ادبية ولسانية ، العدد 05/ شتاء 1986.

12 – المرجع السابق، ص 95.

13 – عبد الله الغذامي: الخطيئة والتكفير: من البنيوية إلى التشريحية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ط4، 1998، ص 45

14 – فيصل الأحمر : معجم السيميائيات، (مرجع سابق)، ص37.

15 – عبد الله الغذامي: الخطيئة والتكفير: من البنيوية إلى التشريحية (مرجع سابق)، ص ص 50-51.

المحاضرة الرابعة : المحاقلة العلمية أو التقاطعات المعرفية

سنعني في هذا الجانب ببيان تلك العلاقات التي ينسجها الفكر السيميولوجي بالعديد من العلوم ،من خلال تقاطعه في أكثر من مرة عبر العامل المشترك الذي تنبني عليه السيميولوجيا الحديثة ألا هو العلامة.

وسوف نقف عند بعض العلوم التي وجدنا بها كما كبيرا من الشذرات المعرفية للسيميولوجيا كالفلسفة وعلم الدلالة وبعض العلوم الأخرى كعلم الاجتماع وعلم النفس.

1-السيميولوجيا والفلسفة:

التأمل النقطة التي تنطلق منها الفلسفة في مباحثها المعرفية، ولأنه لابد للتأمل أن يصادف الأشياء ويحاول التعرف عليها بناء على السؤال والجواب وهذا كله لا يتم إلا عن طريق العلامات، "الإنسان دليل وخالق للدليل، وقد تمكن من وضع الدلائل والنظر إلى نفسه وإلى الكون وما فيه وإلى المتخيل كدلائل منذ أن تحرر من انبهاره أمام الأشياء واضعا لها تسميات .."[1]

يقول احمد يوسف أيضا في هذا المعنى "لا يمكننا أن نشك في الدعوى القائلة بأنه لا يمكن دراسة ظواهر الوعب بمعزل عن العلامات من حيث أن السيميائيات تضطلع بعملية إضفاء الخصيصة البنيوية على صور المعرفة وأشكال نظرية التعبير."[2]

إن هذا التحاقل الذي يتم بين السيميولوجيا مع الفلسفة من حيث التأمل يعضده دور آخر يتمثل في وضع أصول العلوم ضمن ما يعرف بفلسفة العلوم، فجون لوك الذي كان أول من استعمل مصطلح سيميوطيقا للدلالة على "العلم الذي يهتم بدراسة الطرق والوسائط التي يحصل من خلالها على معرفة نظام الفلسفة والأخلاق وتوصيل معرفتها.[3]

بالتالي نجد أن الفلسفة وجدت سبيلا لها في المضي قدما نحو المعرفة والبحث عن الحقيقة، والشك واحد من آليات البحث عنها، فاستخدمته المدرسة الشكية أولا ثم الرواقية بعدها الذين قالو باعتباطية العلاقة بين الدال والمدلول الذي كان أول الاكتشافات السيميائية.[4]

الفلسفة أيضا علم مرتبط بالمنطق ارتباطا وثيقا فإن تجاور المنطق والسيميولوجيا كان تجاورا مثمرا تمخضت عنه العديد من المفاهيم السيميائية من جهة والمنطقية من جهة أخرى حيث يقول أحمد يوسف مثبتا هذه العلاقة : " إذا جاز لنا القول انظرنا إلى منطق أرسطو على أنه أحد الأسس الأولى في الإشارة إلى بوادر ما يمكن أن نطلق عليه الآن بفلسفة اللغة...أمكننا فهم العلاقة الوطيدة بين السيميائيات والمنطق.[5]

ويضيف في نفس السياق: "وإذا رمنا إعادة صوغ هذا السؤال صوغا سيميائيا هل سيتم نسق الفكر بمنأى عن العلامة الحاملة له؟ وهل يمكن مدارسة العلامة بعيدا عن محمولها إذا كانت حاملا له."[6]

فمفاهيم المحمول والموضوع تنسجم مع مفاهيم الدال والمدلول، كما أن مفاهيم النفي والاثبات والصدق والكذب مفاهيم العلامة كفيلة بالتدليل عليها وبيانها.

2-السيميولوجيا والألسنية:

ليس لأحد أن ينكر ولادة السيميولوجيا علم قائم بذاته أو على الأقل كنبوءة في كنف الدراسات اللسانية، بل وكان على طول تبلوره مصاحبا للغة في فكرها وفي فلسفتها.

فقد ارتبط ظهور السيميولوجيا عند دي سوسير من خلال القطيعة الابستيمولوجية التي احدثها في مجال الدراسات اللسانية.

لكن قبل ذلك أيضا ارتبط الفكر السيميولوجي بالعلامة اللغوية أيضا، فحتى المنطقية الأرسطية في الفلسفة اليونانية كان منطلقها لغويا حيث استوحى مبادئ منطقه من خصائص اللغة اليونانية.[7]

3- السيميولوجيا وعلم الدلالة العربي:

اهتم علماء اللغة الغرب والعرب بالعلامة اللغوية (الكلمة) في بحوثهم المختلفة وعنو بها أيما عناية قديما وحديثا، وخصوها بالدراسة في جوانبها المختلفة وكانت علم الدلالة هو المجال المعرفي الذي حظيت فيه اللفظة بالاهتمام.

وبالنظر إلى تعريف علم الدلالة الذي يورده " علم الدلالة هو العلم الذي يدرس المعنى" ومن خلال هذا المعنى نجد خط الاتفاق الموجود ضمنا بين بحوث علم الدلالة وبحوس السيميولوجيا من حيث أنهما بحث في دلالة العلامات وإن كانت الدلالة أخص بالعلامة اللغوية عن السيميولوجيا.

كما ان الدلالة تختلف عن السيميولوجيا في أن " علم العلامات يهدف لدراسة العلاقات بين الدالات والمدلولات. الدلالة لا تهتم إلا بالمدلولات ودلالات اللغات ومختلف أشكال التعبير والتواصل"[8]

واهتم العرب بالدلالة وأفردوا لها كتبا كثيرة، وقد انقسمت الدلالة عند العرب على ثلاثة اقسام

- الدلالة العقلية: وهي أن يجد العقل بين الدال والمدلول علاقة ذاتية تنقلهما من أحدهما إلى الآخر
- الدلالة الطبيعية: هي دلالة يجد العقل بين الدال والمدلول علاقة طبيعية ينتقل لأجلها منه إليه كأصوات البهائم وأصوات ارتطام الأشياء وغيرها من الأصوات والألفاظ التي تعبر عن الألم والسعال وغيرها.
- الدلالة الوضعية: وهي أن يكون بين الدال والمدلول علاقة الوضع كدلالة اللفظ على المعنى يقول الجرجاني: " جعل الشيء بإزاء شيء آخر بحيث إذا فهم الأول فهم الثاني" [9]

كما تمثلت اهتمامات اللغويين العرب في محاولة ابن فارس الرائدة في معجمه مقاييس اللغة الذي ربط فيه بين المعاني الجزئية للمادة والمعنى العام الذي يجمعها

أما ابن جنّي في كتابه الخصائص الذي ربط فيه التقلبات الممكنة للمادة بمعنى واحد عبر اربعة أبواب مختلفة، والتي يظهر من خلالها اثباته "الكشف عن تلك العلاقة بين الألفاظ ومدلولاتها، ومن ثم مال إلى القول بوجود مناسبة طبيعية بين الألفاظ ومعانيها، بل جعلها سرا من أسرارها العظيمة"[10]

1 – مارسيلو داسكال: الاتجاهات السيميائية المعاصرة، تر:حميد لحميداني وآخرين، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء المغرب، دط، 1987 ، ص03.

2 – أحمد يوسف: الدلالات المفتوحة، (مرجع سايق)، ص 09.

3 – مارسيلو داسكال: الاتجاهات السيميائية المعاصرة، تر:حميد لحميداني وآخرين، (مرجع سابق)، ص03.

4 – فيصل الاحمر: معجم السيميائيات، (مرجع سابق)، ص 253.

5 – أحمد يوسف: الدلالات المفتوحة، (مرجع سابق)، ص 17.

6 – المرجع نفسه، ص 18.

7 – أنظر: أحمد يوسف: الدلالات المفتوحة، (مرجع سابق)، ص 22.

8 – برنار توسان: ماهي السيميولوجيا، تر: محمد نظيف، افريقيا الشرق ، المغرب، دط، دت، ص 19.

9 – أحمد يوسف: الدلالات المفتوحة (مرجع سابق)، ص ..

10 – مجدي ابراهيم ومحمد ابراهيم: بحوث ودراسات في علم اللغة، مكتبة النهظة العربية، القاهرة، دط، دت، ص 191.

المحاضرة الخامسة: الموضوعات والمبادئ

1-موضوع السيميولوجيا

إن السيميائيات – كما أشرنا فيما سبق – عبارة عن عملية تفكيك لعناصر المعنى ومعرفة تمفصلاتها لاعادة تركيبها، وتحديد البنيات العميقة المتوارية وراء البنيات السطحية المتجلية في مستويات مخلفة صوتية وصرفية وتركيبية.

ومن ثم، فإنها تشتغل على استكناه بواعث النصوص وتكوناتها البنيوية الداخلية، متقفية أسباب تعدد ولانهائية الخطابات والنصوص والبرامج السردية،

ومن ثم، فالسيميولوجيا" لا يهمها ما يقول النص، ولا من قاله، بل ما يهمها هو كيف قال النص ماقاله. أي: إن السيميولوجيا لايهمها المضمون ولا حياة المبدع أو سيرته، بقدر ما يهمها شكل المضمون، كما يظهر ذلك جليا في هذه الخطاطة[1]

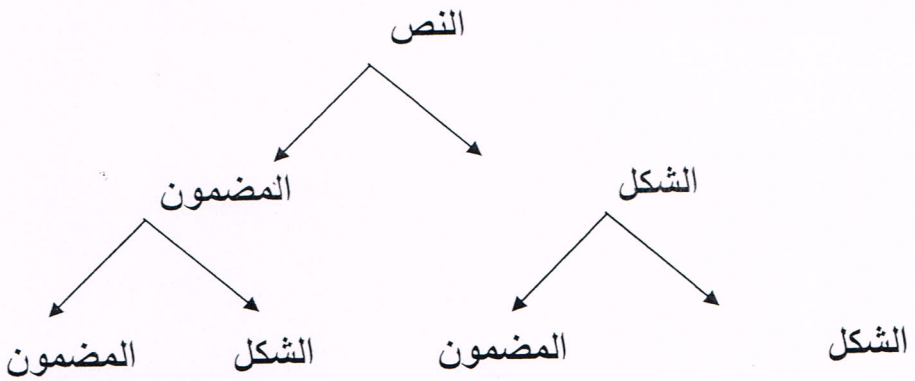

2-مبادئ السيميولوجيا

تتخذ السيميولوجيا باعتبارها منهجا يتكئ لعلم قائم بذاته، على جمل من المبادئ أو لنسميها اسسا للتحليل، حددتها جماعة أنتروفيرن Groupe D'Entrevernes – في ثلاثة مبادئ ضرورية هي[2]:

2-1- التحليل المحايث (مبدأ المحايثة):

يعد مفهوم " المحايثة " من المفاهيم التي أشاعتها البنيوية في بداية الستينات، واستنادا إليه يفهم النص وتنجز قراءاته، وأصبح "التحليل المحايث" وحده الذي يجيب عن كل الأسئلة ويدرك كل المعاني. [3]

وترتبط المحايثة ايضا – كما عبر عن ذلك – لالاند في قاموسه، "مرتبطة بنشاطين: نشاط يحيل على كل ما هو موجود بشكل ثابت وقار في كائن ما، وآخر يحيل على ما يصدر عن كائن ما معبرا عن طبيعته الأصلية، وفي الحالتين معا نكون أمام مضامين سابقة ومعطاة مع الطبيعة ذاتها "[4]

تتبنى السيميولوجيا مبدأ المحايثة في اشتغالها على النصوص، والمقصود بالمحايثة هو الابتعاد عن العناصر الخارجة عن النص وتركز على الشروط الداخلية المولدة للدلالة التي تبحث عنها.

ينتهج التحليل المحايث (Immanente) "الاستقراء الداخلي للوظائف النصية التي تساهم في توليد الدلالة. ولا يهمها العلاقات الخارجية، ولا الحيثيات السوسيو- تاريخية والاقتصادية التي أفرزت عمل المبدع." [5]

والمحايثة بهذا المعنى هي مصطلح يدل على الاهتمام بالشيء ذاته وفي ذاته، فالنظرة المحايثة هي النظرة التي تفسر الأشياء في ذاتها، ومن حيث هي موضوعات تحكمها قوانين تنبع من داخلها وليس من خارجها[6].

إن إبعاد الموضوعات الخارجة عن النص يسمح حسب النظرية السيميائية برصد العلاقات التشاكلية أو التضادية الموجودة بين العناصر داخل العمل الفني[7].

2-2- التحليل البنيوي :

إن البنيوية نظرية لسانية تعتبر اللغة نظاما مستقلا ومهيكلا بعلاقاتها المحددة والمعرفة للمصطلحات على اختلاف المستويات (الفونيمات، المورفيمات الجمل) وهي كذلك تعتمد على التشابه والاختلاف، التقابل والاستبدال[8]

تتضمن السيموطيقا في طياتها المنهج البنيوي القائم على مجموعة من المفاهيم الاصطلاحية التي يعتمد عليها تفكيكا وتركيبا، مثل البنية ،النسق، الشبكة، الداخل، النص اللسانيات، الدال والمدلول...[9]

ومن ثم، فلا يمكن استيعاب السيميوطيقا البنيوية إلا من بوجود الاختلاف، لأن فرديناند دوسوسير وهلمسليف يقران أن المعنى لا يستخلص إلا عبر الاختلاف، وبالاختلاف وحده.

ومن هنا، كان الاختلاف سببا من أسباب تطور الدراسات البنيوية واللسانية والتفكيكية.

وهكذا، فعندما تقتحم السيميوطيقا أغوار النص، فإنها تدخل من نافذة العلاقات الداخلية المثبتة القائمة على الاختلاف بين البنيات والدوال. ومن ثم، فالتحليل البنيوي هو الوحيد الذي له القدرة على الكشف عن شكل المضمون، وتحديد الاختلافات على مستوى العلاقات الموجودة بين العناصر الداخلية للنسق في علاقته مع النظام البنيوي.

إن البنيوية في جوهرها تركز على أدبية الأدب وليس على وظيفة الأدب أو معنى الأدب فتهتم بتحديد الخصائص التي تجعل الأدب أدبا.[10] كما يهدف التحليل البنيوي إلى استنباط البنية أو البنيات الخاصة بالنص أو الخطاب المعتبر لذاته كمجموعة وكنظام.[11]

تتضمن السيميوطيقا في طياتها المنهج البنيوي القائم على مجموعة من المفاهيم الاصطلاحية التي يعتمد عليها تفكيكا وتركيبا، مثل: النسقية، والبنية، وشبكة العلاقات، والسانكرونية، والوصف المحايث.

2-3-تحليل الخطاب:

تفترق السيميوطيقا النصية عن لسانيات الجملة أيما افتراق؛ لأن هذه الأخيرة تركز كثيرا على الجمل في تشكلاتها البنيوية أو التوزيعية أو التوليدية أو التداولية، فتريد فهم كيفية توليد الجمل اللامتناهية العدد، من خلال قواعد متناهية العدد، أو كيفية توزيع الجمل حسب مكوناتها الفعلية أو الاسمية أو الحرفية أو الظرفية، مع تحديد وظائفها التداولية. بيد أن السيميوطيقا تحاول البحث عن كيفية توليد النصوص، ورصد اختلافها سطحا، واتفاقها عمقا.

---

[1] – جميل الحمداوي: الاتجاهات السيميولوجية (التيارات والمدارس السيميوطيقية في الثقافة الغربية)، دار الألوكة، ط1، 2015، ص 12.

2- Isambert François-André. Groupe d'Entrevernes Analyse sémiotique des textes. Introduction, théorie, pratique. In: Archives de sciences sociales des religions, n°48/2, 1979. p. 291;

3 – سعيد بنكراد: "مفاهيم في السيميائيات"، مجلة علامات، العدد17، المغرب، 2002، ص 85.

4 – André Lalande: Vocabulaire technique et critique de la philosophie, article Immanence

5 – جميل الحمداوي: الاتجاهات السيميوطيقية ، (مرجع سابق)، ص 13.

6 – يوسف وغليسي: اشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الجديد، ط1، الدار العربية للعلوم، منشورات الاختلاف، 2008، ص134.

[7] – جميل حمداوي: الاتجاهات السيموطيقية، (مرجع سابق)، ص12.

[8] – سليمة يحياوي: مقاربة سيميائية لديوان السنبلة، ص56.

[9] – جميل حمداوي: نظريات النقد الأدبي في مرحلة ما بعد الحداثة، مكتبة المثقف،ص10

[10] – عبد العزيز حمودة: المرايا المحدبة-من البنيوية إلى التفكيك- عالم لمعرفة،الكويت،1998،ص159

[11] – رشيد بن مالك: قاموس مصطلحات التحليل السيميائي للنصوص -عربي-انجليزي-فرنسي، دار الحكمة، الجزائر، 2000، ص 197.

المحاضرة السادسة: المدارس والاتجاهات

تستمد السيميوطيقا – مثلما توصلنا اليه– أصولها من اللسانيات والبنيوية والفلسفة والمنطق. ومن ثم، فهي تتفرع إلى مدارس واتجاهات متعددة ومختلفة ومتنوعة.

يقسم الباحث المغربي حنون مبارك الاتجاهات السيميوطيقية إلى سيميولوجيا التواصل، وسيميولوجيا الدلالة، وسيميولوجية دوسوسير، وسيميوطيقا بيرس، ورمزية كاسيرر (Cassirer)، وسيميوطيقا الثقافة[1].

أما الدكتور محمد السرغيني، في كتابه(**محاضرات في السيميولوجيا**)، فيحدد ثلاثة اتجاهات: الاتجاه الأمريكي، والاتجاه الفرنسي، والاتجاه الروسي[2].

ومن اشهر التقسيمات الموجودة ما يقدمه مارسيلو داسكال(Marcilo Dascal) في هذا الشان، حيث يعتبر أن اتجاهات السيميولوجيا تختصر في ثلاثة تيارات: سيميولوجيا التواصل، وسيميولوجيا الدلالة، وسيميولوجيا التعبير عن الفكر[3].

وسوف نحاول توضيح هذه الاتجاهات حسب كل مدرسة أو تيار على حدة، قصد معرفة تصوراتها النظرية ومبادئها المنهجية.

1- المدرسة الأميريكية

رائد هذا الاتجاه السيميائي الفيلسوف المنطقي تشارلز ساندرس بيرس(Charles S.Pierce) (1838-1914م)، مطلق مصطلح السيميوطيقا (Sémiotique) على علم العلامات، وتقوم سيميوطيقاه على أساس علم المنطق حيث يقول في هذا الصدد:" إن المنطق بمعناه العام... ليس سوى تسمية أخرى للسيميوطيقا ".[4]

وعليه فالسيميوطيقا البيرسية تتكئ على الدلائل اللسانية وغير اللسانية. ومن الواضح عنده أن "مفهوم الدليل ما كان له أن يكون كذلك لو لم يوسع ليشمل مختلف الظواهر كيفما كانت طبيعتها. وقد أكد بيرس أنه لم يكن بوسعه أن يدرس أي شيء، مثل: الرياضيات والأخلاق

والميتافيزيقا والجاذبية وعلم الأصوات والاقتصاد وتاريخ العلوم...إلخ، إلا بوصفه دراسة سيميوطيقية."[5]

ويمكن اعتبار سيميوطيقا بيرس ذات أبعاد تركيبية ودلالية وتداولية باعتبار أن الدليل البيرسي ثلاثي، نظرا لوجود الممثل باعتباره دليلا في البعد الأول، ووجود موضوع الدليل (المعنى) في البعد الثاني، ويتمثل البعد الأخير في المؤول الذي يفسر كيفية إحالة الدليل على موضوعه انطلاقا من قواعد الدلالة الموجودة فيه.[6]

ومن ثم، تتكون العلامة عند بيرس من الممثل والموضوع والمؤول، علاوة على ذلك، قد تكون العلامة البيرسية لغوية أو غير لغوية. ومن ثم، فهي أنواع ثلاثة: الأيقون، والإشارة، والرمز. وتتفرع هذه الأشكال الرمزية إلى فروع متعددة ومتسعة. ويمكن تحديدها على الشكل التالي[7]:

الممثل	العلامة- الصفة	العلامة- المفرد	العلامة- النمط
Représentamen	Qualisigne	Sin Signe	Légisigne
الموضوع	الأيقونة	الإشارة	الرمز
Objet	Icone	Indice	Symbole
المؤول	المسند إليه	الافتراض	البرهان
Intreprétant	Rhème	Decisigne	Argument

وهكذا، فالعلاقة التي تجمع بين الدال والمدلول ضمن الأيقون هي علاقة تشابه وتماثل، مثل: الخرائط، والصور الفوتوغرافية، والأوراق المطبوعة. ومن ثم، تحيل على مواضيعها مباشرة بواسطة المشابهة. أما الإشارة أو العلامة المؤشرية، فتكون العلاقة فيها بين الدال والمدلول سببية وعلية ومنطقية كارتباط الدخان بالنار - مثلا-.

أما العلاقة الموجودة بين الدال والمدلول فيما يتعلق بالرمز، فهي علاقة اعتباطية وعرفية وغير معللة. فلا يوجد ثمة، إذاً، أي تجاور أو صلة طبيعية بينهما.[8]

بيد أن بنفينست (Benveniste) قد صوب سهام النقد إلى بيرس، آخذا عليه مبالغته في تحويل كل مظاهر الوجود إلى علامة، حتى إن الإنسان أصبح لدى بيرس علامة، في مقال بعنوان **(سيميولوجيا اللغة)**، حيث يقول بنفنست:" ينطلق بيرس من مفهوم العلامة لتعريف جميع عناصر العالم سواء أكانت هذه العناصر حسية ملموسة أم عناصر مجردة، وسواء أكانت عناصر مفردة أم عناصر متشابكة، حتى الإنسان- في نظر بيرس- علامة، وكذلك مشاعره، وأفكاره. ومن اللافت للنظر أن كل هذه العلامات، في نهاية الأمر، لا تحيل على شيء سوى علامات أخرى، فكيف يمكن أن نخرج عن نطاق عالم العلامات المغلق نفسه؟ نرسي فيها علاقة تربط بين العلامة، وشيء آخر غير نفسها."(9)

وبناء على هذا كله، نقول: إن سيميوطيقا بيرس صالحة لتطبيقها في إطار المقاربة النصية والخطابية باستعارة مفاهيمها، واستدعاء أبعادها التحليلية الثلاثة: البعد التركيبي، والبعد الدلالي، والبعد التداولي. بالإضافة إلى المفاهيم الدلائلية الأخرى الثلاثة: الأيقون، والرمز، والإشارة؛ لأن كثيرا من الإنتاجات النصية والإبداعية تحمل دلالات أيقونية بصرية، تحتاج إلى تأويل وتفسير عبر استقراء الدليل والموضوع والمؤول.

2- المدرسة الأوروبية

3-2-1 سيميولوجيا فرديناند دوسوسير F.De Saussure:

يعد التصور الدوسوسيري البداية الحقيقة للسيميولوجيا، إذ قطع هذا العلم الجديد أشواطا علمية ملحوظة، بل إنه أعاد ترتيب العلاقات بينه وبين اللسانيات والإبستمولوجيا والفلسفة.

وانتقلت السيميائيات من تبعيتها للسانيات إلى قيامها بجمع شمل العلوم، والتحكم فيها، وأنتجت أدوات معرفية لمقاربة مختلف الظواهر الثقافية، باعتبارها أنساقا تواصلية ودلالات، وبذلك أوجدت لنفسها موقعا إبستمولوجيا شرعيا[10].

تدرس السيميولوجيا عند دوسوسير الأنساق القائمة على اعتباطية الدليل. ومن ثم، لها الحق في دراسة الدلائل الطبيعية كذلك، أي: إن لها موضوعين رئيسيين: الدلائل الاعتباطية والدلائل الطبيعية.

علاوة على ذلك، ينبغي على السيميولوجيا، أن تستعير من اللسانيات مبادئها ومفاهيمها، كاللسان والكلام، والسانكرونية والدياكرونية، كما فعل رولان بارت الذي يقول:" بمثل هذه النظرة، ما يترتب عنها صارت السيميولوجيا تابعة للسانيات، بل وفرعا منها"[11]

والمنهج الذي رصده دوسوسير بخصوص التحليل اللساني، من المفروض، وفق هذا الطرح، أن ينسحب على الأنساق السيميولوجية، مثل: التزامنية(السانكرونية)، والقيمة، والتعارض،والمحورين الترابطي والمركبي."[12]

علاوة على ذلك، تقوم العلامة عند دوسوسير على الدال والمدلول مع إقصاء المرجع المادي الحسي ومن ثم، فالعلاقة الموجودة بينهما علاقة اعتباطية، ماعدا المحاكيات للطبيعة(onomatopées)، وصيغ التعجب. ومن هنا، لايتحد الدليل من خلال مجاله المادي، بل من خلال العلاقات الاختلافية والتعارضية على مستوى تجاور الدوال والمدلولات.

2-2 سيميولوجيا التواصل

من بين التصورات السيميائية التي تستلهم سوسير، التصور الذي يمثله كل من مونان: "Mounin"، وبريطو: "Preito"، وبويسنس: "Buyssens"، وكرايس: "Crice"، ومارتينيه: "Martinet".

ويحكم هذا التصور مبدأ لا يرى في الدليل غير كونه أداة تواصلية، أي مقصدية إبلاغية، ويعني هذا أن العلامة تتألف من عناصر ثلاثة: الدليل، المدلول، الوظيفة، أو القصد، وهؤلاء العلماء لا يهمهم من الدوال والعلامات السيميائية غير التواصل أو الإبلاغ والوظيفة الاتصالية أو التواصلية، وهذه الوظيفة لا تؤديها الأنساق اللسانية فقط، بل هناك أنظمة سننية غير لسانية، ذات وظيفة سيميائية تواصلية.

إن السيمياء حسب بويسنس تعني دراسة أساليب التواصل، والأدوات المستخدمة للتأثير في المتلقي قصد إقناعه أو حثه أو إبعاده، أي أن موضوع السيمياء هو التواصل المراد، وبخاصة التواصل اللساني والسيميائي، وقد انتقد بعض السيميائيين: "بويسنسBuyssens ، وبربيطوPrieto ، و جورج مونان": "G.Mounin " على نظرتهم هذه، ورأوا أن العودة إلى النظرية السوسيرية يحل إشكالية العلامة، لأن أصحاب هذا الاتجاه حصروا السيمياء في دراسة أنساق العلامات ذات الوظيفة التواصلية، فذهب مونان إلى القول أنه ينبغي من أجل تعيين الوقائع التي تدرسها السيميائية تطبيق "القياس الأساسي القاضي بأن هناك سيميوطيقا أو سيميولوجيا إذ حصل التواصل.[13]

إن الوظيفة الخاصة بالبنيات السيميائية التي تسمى بالألسنية هي التواصل، ولا تختص هذه الوظيفة بالألسنية وإنما توجد أيضا في البنيات السيميائية التي تشكلها الأنماط السننية غير اللسانية، ولذلك يمكن للسيمياء حسب بويسنس: "Buyssens" أن تعرف باعتبارها دراسة طرق التواصل، أي دراسة الأدوات المستعملة للتأثير على الغير. فالتواصل في رأي بويسنس هو ما يكون موضوع السيمياء[14]، وهناك العلامات العفوية والأمارات العفوية المغلوطة، والأمارات القصدية[15]، فالسيمياء تركز على الأنساق الدلالية التي تقوم على

القصدية التواصلية، بل إن السيمياء "السيميوطيقا"، كما يقول بريطو "Prieto": ينبغي عليها أن تهتم . فيما يرى بويسنس . بالوقائع القابلة للتواصل ، وهو الذي يشكل موضوع السيمياء، والتواصل المراد هو من جنس التواصل اللساني، لأن هذا التواصل هو التواصل الحقيقي.

ويرى بريطو "Prieto" أنه من الممكن اعتبار سيميولوجيا التواصل قسما من سيميولوجيا تدرس البنيات السيميوطيقية مهما كانت وظيفتها، غير أن سيميولوجيا من هذا النوع ستلتبس بعلوم الإنسان منظورا إليها في مجموعها، حيث يبدو موضوع الإنسان جميعا هو البنيات السيميوطيقية التي لا تتميز فيما بينها إلا بالوظيفة التي تميز على التوالي هذه البنيات.(16)

ولسيمياء التواصل محوران، هما: التواصل والعلامة، وكل من هذين المحورين يتفرع إلى أقسام ويمكن أن يقسم التواصل السيميائي إلى: إبلاغ لساني، وإبلاغ غير لساني فإبلاغ "التواصل" اللساني يتم عبر الاستخدام اللغوي، فعند سوسير لابد من متكلم وسامع علاوة على تبادل الكلام عبر الصورة الصوتية والصورة السمعية، بينما لدى ويفر وشينون يتم عبر إرسال الرسالة من قبل المتكلم إلى المستقبل، وهذه الرسالة يتم تشفيرها وترسل عبر القناة، ويشترط الوضوح وسهولة المقصدية . قصد أداء رسالة . وبعد وصول الرسالة يقوم المرسل إليه"الملتقي" بتفكيك شفرات الرسالة وتأويلها.

أما التواصل غير اللساني فيعتمد على أنظمة سننية غير أنساق اللغة، وهي في رأي بويسنس تصنف حسب معايير ثلاثة:

أ- معيار الإشارية النسقية، حيث تكون العلامات ثابتة ودائمة كعلامات المرور.

ب- معيار الإشارية غير النسقية، عندما تكون العلامات غير ثابتة وغير دائمة على عكس المعيار الأول نحو الملصقات الإشهارية، والدعائية.(17)

ج- معيار الإشارية، عندما تكون العلاقة جوهرية بين معنى المؤشر وشكله، كالملصقات التي توضع فوق وجهات المتاجر بغية ترويج البضائع، وضمن هذا المعيار الأخير، يوجد

معيار آخر: الإشارية ذات العلاقة الاعتباطية، كالصليب الأخضر الذي يشير إلى الصيدلية.

وما يهمنا في هذه السيميولوجيا هو موضوع التواصل؛ لأن المقاربة السيميوطيقية للنصوص تبحث في وظائف خطاباتها وملفوظاتها الإبداعية، فتبرز مقاصدها المباشرة وغير المباشرة. وإذا أخذنا العنوان الذي يعلق على أغلفة الدواوين الشعرية أو فوق النصوص، فليس تموقعه زائدا ومجانيا، بل يؤدي دورا في التدليل، ويساهم في فهم الدلالة. ومن ثم، فالعنوان هو المفتاح الإجرائي الذي يمدنا بمجموعة من المعاني التي تساعدنا على فك رموز النص، وتسهيل مأمورية الدخول في أغواره، واستكشاف تشعباته الوعرة. ويمكن أن نستلهم من هذه السيميولوجيا بعض أنماط علاماتها التواصلية، كالإشارة، والأيقون، والرمز؛ وهذه المصطلحات الإجرائية ذات كفاية منهجية ناجعة في مقاربة الدال العنواني، باعتباره العتبة الحقيقية لولوج عالم المدلولات النصية والسياقية.

2-3- سيميولوجيا الدلالة

يعتبر رولان بارت(R.Barthes) خير من يمثل هذا الاتجاه، لأن البحث السيميولوجي لديه هو دراسة الأنظمة الدالة، فجميع الأنساق والوقائع تدل. فهناك من يدل بواسطة اللغة، وهناك من يدل بدون اللغة السننية، بيد أن لها لغة دلالية خاصة بها. ومادامت الأنساق والوقائع كلها دالة، فلا عيب في تطبيق المقاييس اللسانية على الوقائع غير اللفظية. أي: أنظمة السيميوطيقا غير اللسانية لبناء الطرح الدلالي. ومن هنا، فقد انتقد بارت في كتابه **(عناصر السيميولوجيا)** الأطروحة السوسيرية التي تدعو إلى إدماج اللسانيات في قلب السيميولوجيا، مؤكدا أن اللسانيات ليست فرعا ولو كان مميزا، من علم الدلائل(السيميولوجيا)، بل السيميولوجيا هي التي تشكل فرعا من اللسانيات.[18]

ومن هنا، فقد تجاوز رولان بارت تصور الوظيفيين الذين ربطوا بين العلامات والمقصدية، وأكد على وجود أنساق غير لفظية، حيث التواصل غير إرادي، لكن البعد الدلالي موجود بدرجة كبيرة. وتعتبر اللغة الوسيلة الوحيدة التي تجعل هذه الأنساق والأشياء غير اللفظية دالة، حيث إن كل" المجالات المعرفية ذات العمق السوسيولوجي الحقيقي تفرض علينا مواجهة اللغة، ذلك أن الأشياء تحمل دلالات.غير أنه ماكان لها أن تكون أنساقا سيميولوجية أو أنساقا دالة لولا تدخل اللغة، ولولا امتزاجها باللغة. فهي، إذاً، تكتسب صفة النسق السيميولوجي من اللغة. وهذا ما دفع بارت إلى أن يرى أنه من الصعب جدا تصور إمكان وجود مدلولات نسق صور أو أشياء خارج اللغة؛ بحيث إن إدراك ماتدل عليه مادة ما يعني اللجوء، قدريا، إلى تقطيع اللغة؛ فلا وجود لمعنى إلا لما هو مسمى، وعالم المدلولات ليس سوى عالم اللغة."[(19)]

أما عناصر سيمياء الدلالة لدى بارت، فقد حصرها، في كتابه**(عناصر السيميولوجيا)**، في الثنائيات البنيوية التالية: ثنائية الدال والمدلول، وثنائية التعيين والتضمين، وثنائية اللسان والكلام، وثنائية المحور الاستبدالي والمحور التركيبي.

والإبداعات الحكائية الخرافية، متأثرة في ذلك بعمل فلاديمير بروب(V.Propp) الذي توجه إلى استخلاص وظائف الخرافات الأسطورية الروسية العجيبة.

وعليه، فقد اهتم كريماص في أبحاثه بالدلالة، وشكلنة المضمون، معتمدا في ذلك على التحليل البنيوي، وتمثل القراءة المحايثة، ورصد الخطابات النصية السردية. ويعتمد منهجه السيميوطيقي على مستويين: سطحي وعميق. إذ ينقسم المستوى السطحي بدوره إلى مكونين: مكون سردي ينظم تتابع الحالات، وتسلسل التحولات، ويرصد البنية العاملية. أما المكون الخطابي، فيعنى داخل النص بالبنية الفاعلية، وتحديد الصور وآثار المعنى. أما على المستوى العميق، فيتم الحديث عن مستويين: مستوى المربع السيميائي المنطقي، ومستوى التشاكل السيميولوجي.

2-5- سيميائية الثقافة

تعنى سيميائية الثقافة أو الثقافات Sémiotique de la culture بدراسة الأنظمة الثقافية باعتبارها دوالا وعلامات، بغية استكناه المعنى الثقافي الحقيقي داخل المجتمع، ورصد الدلالات الرمزية والأنتروبولوجية والفلسفية والأخلاقية، "فهو يعد الظاهرة الثقافية موضوعا تواصليا ونسقا دلاليا يتضمن عدة انساق ...فما سلوك الانسان -حسب هذا الاتجاه- الا تواصل داخل ثقافة معينة هي التي تعطيه دلالته ومعناه" (21)

وقد اخذت الثقافة وظواهرها مناحي مختلفة من حيث الاهتمام، وعوالجت وفق مقاربات مختلفة فلسفية ولسانية وسيميائية.

الفلسفي: مثله الباحث الأنثروبولجي **كلود ليفي شتروس Claude Lévi- Strauss** من الأوائل الذين درسوا علاقة الثقافة بالطبيعة، ضمن أنظمة الأبوة وإنتاج الأساطير (22)، وكيفية انتقال الإنسان من ماهو طبيعي نحو ما هو مجتمعي وثقافي.

اللساني: انتقلت الدراسات الثقافية من طابعها الفلسفي المبني على التقابلات الأنتروبولوجية إلى الطابع العلمي الموضوعي، وذلك عبر تحويل المعطيات الثقافية إلى مواضيع تصلح للمعاينة العلمية والفحص، ومن ثمة صار بالإمكان دراسة الأساطير والملاحم والفلكلور

ضمن معطيات التحليل اللساني والبنيوي والشعري والمورفولوجي، كما يؤكد ذلك الباحث الفرنسي فرانسوا راستيي François Rastier[23].

وإذا كانت اللسانيات هي بمثابة سيميولوجيا عامة للغات والنصوص والخطابات، فإن سيميوطيقا الثقافة هي جزء من تلك اللسانيات أو السيميولوجيا العامة.

سيميائيا: لم تتبلور سيميوطيقا الثقافة أو الثقافات بشكل جلي إلا مع مجموعة من العلماء الذين اجتمعوا فيما عرف بمدرسة **تارتو موسكو** والتي ضمت العديد من الأسماء النقدية البارزة على رأسهم **يوري لوتمان وبوريس اوسبنسكي ونزفيطان تودوروف وامبرتو ايكو وروسي لاندي**، مستفيدا من الفلسفة الماركسية وفلسفة الاشكال الرمزية.[24]

ينطلق أصحاب هذا الاتجاه من فكرة مفادها أن للثقافة منظورين الثقافة من منظور داخلي اي من منظور ذاتها، وهو المنظور الذي يتمثله حامل هذه الثقافة ومستعملها، ثم الثقافة من منظور خارجي، أي من منظور النظام العلمي الذي يصفها"[25]

وبناء على هذا الفهم تتبني لديهم قناعة مفادها ان " العلامة لا تكتسب دلالتها الا من خلال وضعها في إطار الثقافة" [26]

ولا علامة مفردة عند هذا الاتجاه بل هناك أنظمة دالة تتكون من مجموعة من العلامات، وبالتالي فالواحد حسبهم ليس مستقلا عن الأنظمة الاخرى إنما الشان عندهم في البحث عن العلاقات التي تربط بينها، سواء كان ذلك داخل ثقافة واحدة (علاقة الأدب مثلا بالبنيات الثقافية الأخرى مثل: الدين والاقتصاد وأشكال التحتية...إلخ)، أو يحاولون الكشف عن العلاقات التي تربط تجليات الثقافة الواحدة عبر تطورها الزمني، أو بين الثقافات المختلفة للتعرف على عناصر التشابه والاختلاف، أو بين الثقافة واللاثقافة".[27]

وتعتبر جماعة تارتو– موسكو الثقافة " الوعاء الشامل الذي تدخل فيه جميع نواحي السلوك البشري الفردي منه والجماعي. ويتعلق هذا السلوك في نطاق السيميوطيقا بإنتاج العلامات واستخدامها.

3- الاتجاه الإيطالي

يمثل هذا الاتجاه كل من أمبرطو إيكو(U.Eco) وروسي لاندي(Rossi Landi) اللذين اهتما كثيرا بالظواهر الثقافية، باعتبارها موضوعات تواصلية وأنساقا دلالية على غرار سيميوطيقا الثقافة في روسيا. ويرى أمبرطو إيكو" أن الثقافة لا تنشأ إلا حينما تتوفر الشروط الثلاثة التالية:

- حينما يسند كائن مفكر وظيفة جديدة للشيء الطبيعي...
- حينما يسمي ذلك الشيء باعتباره يستخدم في شيء ما، ولا يشترط أبدا قول هذه التسمية بصوت مرتفع كمالا يشترط فيها أن تقال للغير.
- حينما نتعرف على ذلك الشيء باعتباره شيئا يستجيب لوظيفة معينة، وباعتباره ذا تسمية محددة، ولا يشترط استعماله مرة ثانية، وإنما يكفي مجرد التعرف عليه"[28].

هذا، ويشدد إيكو على أن الثقافة لاتنحصر مهمتها في التواصل فقط، بل إن فهمها فهما حقيقيا مثمرا لايتم إلا بمظهرها التواصلي، وبناء على هذا، فقوانين التواصل هي قوانين ثقافية. ويعني هذا أن قوانين الأنساق السيميوطيقية هي قوانين ثقافية.

أما **روسي لاندي**، فإنه يحدد السيميولوجيا من خلال أبعاد البرمجة التي يمكن حصرها عنده في ثلاثة أنواع:

- **أنماط الإنتاج:** مجموع قوى الإنتاج وعلاقات الإنتاج .
- **الإيديولوجيات:** تخطيطات اجتماعية لنمط عام.
- **برامج التواصل:** التواصل اللفظي وغير اللفظي.[29]

فالسيميوطيقا لدى روسي وتتسم بالنزعة الإنسانية؛ لأنها تركز على الإنسان والتاريخ فهي حسبه " علم شامل للدليل والتواصل ... ينبغي أن تعنى مباشرة لا بالتبادل وتطوراته، بل ينبغي أن تعنى أيضا بالإنتاج والاستهلاك، لا بقيم التبادل الدلالية فحسب، بل بقيم الاستعمال الدلالية أيضا.

فالسيميوطيقا لا يمكنها أن تعنى فقط بالطريقة التي تتبادل بها البضائع والنساء باعتبارها رسائل، لأنها ينبغي أن تعنى، أيضا، بالطريقة التي تم بها إنتاج هذه الرسائل (البضائع والنساء) واستهلاكها."(30)

ويلاحظ على الاتجاه الإيطالي أنه يلتقي مع مدرسة تارتو الروسية في اعتبار الظواهر الثقافية ذات مقصدية تواصلية.

خلاصة القول يمكن ان نورد ما قاله مارسيلو داسكالحول صعوبة تحديد اتجاهات للسيميولوجيا حين يقول:" إن السيميولوجيا ما تزال في مرحلة ماقبل الأنموذج من تطورها كعلم. وفي مثل هذا الوضع، فإن عدة مدارس تتعارض لامن حيث النظريات السيميوطيقية المتنافرة التي تقترحها فحسب، وإنما تتعارض أيضا من حيث تصورها لما يجب أن يشكل نظرية سيميوطيقية أو سيميولوجية."(31)

وهكذا، يعود التعدد في المدارس والاتجاهات السيميولوجية إلى الاختلاف في الروافد والمشارب، ويعود أيضا إلى تصورات كل سيميائي على حدة، واختلاف منطلقاتهم النظرية والمنهجية والتطبيقية.

---

[1] – حنون مبارك: دروس في السيميائيات، دار توبقال للنشر، الطبعة الأولى سنة 1987م، ص:69-85.

[2] – محمد السرغيني: محاضرات في السيميولوجيا، دار الثقافة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى 1987م، ص:68.

[3] – مارسيلو داسكال: الاتجاهات السيميولوجية المعاصرة، ترجمة: لحمداني حميد وآخرون، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، الطبعة الأولى سنة 1987م.

[4] .-Voir : Pierce:**Ecrits sur le signe**.Seuil, Paris, 1978, p.120

5 – حنون مبارك: دروس في السيميائيات، (مرجع سابق) نفسه، ص:79.

6 – فيصل الأحمر: معجم السيميائيات، (مرجع سابق)، ص 56

7 – ينظر: أحمد يوسف الدلالات المفتوحة، (مرجع سابق) ص 143

[8] – ينظر: سعيد بنكراد: السيميائيات والتأويل (مدخل لسيميائيات ش س بورس)، المركز الثافي العربي، الدار البيضاء المغرب، ط1، 2005، ص 122.

[9] – عواد علي: معرفة الآخر، مدخل إلى المناهج النقدية الحديثة، ص:83.

10 – حنون مبارك: دروس في السيميائيات، (مرجع سابق)، ص:102.

11 - المرجع نفسه، ص 103

12- المرجع السابق، ص72.

[13] - عواد علي، معرفة الآخر- مدخل إلى المناهج النقدية الحديثة، (مرجع سابق)، ص: 85.

14 - مارسلو داسكال، الاتجاهات السيميولوجية المعاصرة، (مرجع سابق)، ص: 38.

15 - حنون مبارك، دروس في السيميائيات، (مرجع سابق)، ص: 73.

16 - المرجع نفسه، ص74

17 - بييرجيرو، السيمياء، تر: انطوان أبي زيد، منشورات عويدات ، ط1، 2005، بيروت لبنان، ص 62.

[18] - عبد الله إبراهيم وآخرون: معرفة الآخر- مدخل إلى المناهج النقدية الحديثة، (مرجع السابق)، ص:96.

[19] - حنون مبارك، دروس في السيميائيات، (مرجع السابق)، ص:74.

20 - ينظر: جون كلود كوكي : السيميائية مدرسة باريس، (مرجع سابق)، ص 07.

[21] - عبد الواحد مرابط: السيمياء العامة وسيمياء الأدب، الدار العربية للكتاب، الرباط، ط1، 2010 ، ص 75.

[22]- François Rastier et Carine Duteil-Mougel :(Sémiotique des cultures),Vocabulaire des études sémiotiques et sémiologiques, sous la direction de Driss Ablali et de Dominique Ducard,P.U.F, Paris, Besançon 2009, p : 89.

[23]- François Rastier et Carine Duteil-Mougel :(Sémiotique des cultures(: p ,90.

[24] - انظر: فيصل الاحمر: معجم السيميائيات، (مرجع سابق)، ص 97.

[25] - عبد الواحد مرابط: السيمياء العامة وسيمياء الأدب، (مرجع سابق)، ص 75.

[26] - عبد الله ابراهيم وآخرين: معرفة الآخر (مدخل الى المناهج النقدية الحديثة)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب، ط2، 1996، ص 109.

[27] - سيزا قاسم: السيميوطيقا: حول بعض المفاهيم والأبعاد، مدخل إلى السيميوطيقا، الجزء الأول، منشورات عيون المقالات، الدار البيضاء، المغرب، ص:40.

[28] - حنون مبارك: دروس في السيميائيات، (مرجع سابق)، نفسه، ص:86.

[29] - المرجع نفسه، ص:89.

[30] - المرجع السابق، ص:91.

[31] - مارسيبلو داسكال: الاتجاهات السيميولوجية المعاصرة، (مرجع سابق)، ص:17-18.